205 سلسلة محاضرات الإمارات

مفهوم الخلافة

جدلية النموذج بين الماضي والحاضر

فاروق حمادة

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

2017

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أصبحت إصدارات مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، علامة مسجلة للجودة والدقة العلمية في كل أنحاء العالم العربي، ومراجع لا غنى عنها للأكاديميين والباحثين والمختصين في شتى فروع العلم، والراغبين في الاستزادة من المعرفة في أرفع صورها. وفي الذكرى العشرين لإنشائه، في مارس/ آذار 2014، كان مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية قد أضاف إلى المكتبة العربية أكثر من ألف إصدار، غطت طيفاً واسعاً من التخصصات والموضوعات الواقعة ضمن نطاق اهتمامه، من السياسة والاقتصاد والإعلام إلى مجالات الاستراتيجية والمعلوماتية والعلوم العسكرية.

ويضمن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، من خلال عملية مُحكمة يقوم بها فريق عمل متميز القدرات والمهارات، خروج إصداراته شكلاً ومحتوى وفق أرقى المعايير المطبقة عالمياً، ما منحه ريادة تمثلت حصيلتها في عدد كبير من الجوائز المتخصصة التي فازت بها إصداراته.

وتضاف هذه الإصدارات إلى سجل طويل من الأنشطة العلمية والبحثية التي يضطلع بها مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ودوره المؤثر في صناعة القرار في دولة الإمارات العربية المتحدة.

من هذا المنطلق يقوم المركز بإصدار **"سلسلة محاضرات الإمارات"** التي تتناول المحاضرات، والندوات، وورش العمل المتخصصة التي يعقدها المركز ضمن سلسلة الفعاليات العلمية التي ينظمها على مدار العام، ويدعو إليها كبار الباحثين والأكاديميين والخبراء؛ بهدف الاستفادة من خبراتهم، والاطلاع على تحليلاتهم الموضوعية المتضمنة دراسة قضايا الساعة ومعالجتها، وتهدف هذه السلسلة إلى تعميم الفائدة، وإغناء الحوار البنّاء والبحث الجاد، والارتقاء بالقارئ المهتم أينما كان.

سلسلة محاضرات الإمارات

- 205 -

مفهوم الخلافة

جدلية النموذج بين الماضي والحاضر

فاروق حمادة

تصدر عن

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

2017

هذا الإصدار مستند أساساً إلى نص المحاضـرة التي ألقيت في مقـر المركز بتاريخ 14 يونيو 2016، ولا يعبر محتواه بالضرورة عن وجهة نظر المركز.

الطبعة الأولى 2017

ISSN 1682-122X

النسخـــة العاديـــــة ISBN 978-9948-23-760-0

النسخة الإلكترونيـة ISBN 978-9948-23-761-7

توجه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:

سلسلة محاضـرات الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567
أبوظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 4044541-9712+
فاكس: 4044542-9712+
E-mail: pubdis@ecssr.ae
Website: http://www.ecssr.ae

تمهيد

إن الحديث في موضوع الخلافة قديم وحديث ومتجدد، وسيبقى مثار البحث والنقاش أمداً طويلاً، وإن حديثي فيه يستند إلى مسوّغات ثلاثة:

الأول: دراساتي الإسلامية عامة، وفي علوم الحديث خاصة؛ ذلك أنني من دارسي الحديث والسنّة، والحمد لله، وإن الذين ينحون منحى الخلافة ينزعون في زعمهم إلى الحديث والسنّة ويستندون إليهما.

الثاني: في مرحلة الدراسة الجامعية، عندما كنت أدرس القانون في قسم العلوم السياسية في جامعة محمد الخامس بالرباط في السبعينيات من القرن الماضي، وكنت قبلها متخرجاً في كلية الشريعة وأتابع الدراسات العليا في دار الحديث الحسنية، كنت أتساءل – ونحن ندرس النظم السياسية ونشأة الدولة– أين نظام الدولة الإسلامية؟ وكيف يكون؟ وقد اطلعت على عدد من المؤلفات في الموضوع، وكان هذا السؤال مستمراً أبحث له عن جواب.

الثالث: حديث الحركات الإسلامية المتكرر عن الخلافة والدولة والحكم، واستدعاؤها لذلك بمناسبة وبغير مناسبة، ولم يغب ذلك عن العلمانيين أيضاً، بل ربما زادوا في هذا الحديث على الإسلاميين، كل ذلك جعلني أتابع وأوازن وأفكر فيما يقوله هؤلاء وأولئك الذين سلّوا سيف العنف والتدمير باسم الخلافة والإسلام، وأخيراً فقد اطلعت على كتاب سعادة الأستاذ الدكتور جمال سند السويدي **"السراب"** وما قدّم فيه من أطروحات وأفكار واسعة، وقد ذكر في مواضع منه الخلافة.

كلّ هذا وغيره حفزني وحركني إلى مناقشة الموضوع بكل تجرد ونزاهة علمية وأكاديمية، وتكوين رؤية من خلال قناعاتي التي تبلورت بعد عقود من بحث الموضوع ودرسه قصداً وعَرَضاً.

ولما دُعيت لإلقاء محاضرة في ذلك استجبت لما رأيت في ذلك من فائدة للعلم والحوار العلمي، وهذا الذي كان.

وسأسير في ذلك من الجذور حتى أستشرف المستقبل، بحول الله تعالى آملاً أن لا أُملّ ولا أُخلّ مختصراً ذلك.

لا شعوب من دون قيادة

لم تكن هناك مجموعات بشرية عبر التاريخ إلا ولها ضابط ونظام وزعيم يدير شؤونها ويحافظ على وجودها واستمرارها، ويكون مرجعها عند الاختلاف والتنافر؛ لأن التغالب بين البشر طبيعة متأصلة فيهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِـنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة البقرة: 251).

وقد أكد القرآن الكريم في آيات عدة أن المجموعات البشرية كانت ترجع إلى نظام وحاكم.

وكانت أشكال هذا النظام تختلف بين مكان وآخر، وزمان وغيره، كما كان لرأس النظام أسماء عدة ذكرها القرآن الكريم والسنّة النبوية ولم يكن على ذلك اعتراض في آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ، مثل: الخليفة،

والملك، والفرعون، والسلطان، والهرقل، والنجاشي، والعزيز... وهذا أعطى مشروعية للدول الإسلامية من بعد بأن يُسمّى رؤساؤها أسماء مختلفة تبعاً للزمان والمكان.

وقد كتب النبي ﷺ إلى حكام عصره بأسمائهم التي ارتضوها وأقرتهم عليها شعوبهم، وهذا إقرار من النبي ﷺ على ذلك لأن العبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني؛ فرأس النظام يتغير على الدوام ولكن المضمون والمقصود منه لا يتغيران بالجملة.

كما كانت صلاحيات الحكام تختلف بين مكان وآخر وزمان وآخر.

العدالة مطلب إنساني

ولم ينقل لنا القرآن الكريم أو غيره من الكتب الدينية أو التاريخ وغيره عن عصر من العصور البشرية في نظمها وتعايشها وحياتها شيئاً إلا وكان العدل في أولويات حياتها وغايات نظمها وأساس تعايشها فيما بينها، ولما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والمنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾ (سورة النحل: 90)، أكد أن ذلك مطلب إنساني ولا تقوم الحياة إلا بالعدل، وفصَّل ذلك وبيّنه رسول الله ﷺ، في أحاديثه، وتوالى على ذلك علماء الإسلام ومفكّروه، وكانت فكرة العدل والعدالة أساساً راسخاً للتعايش والاستقرار الاجتماعي منذ أقدم العصور، وستبقى. وقد نقل العلماء ما كانت الشعوب والدول السالفة تراه وتحض عليه من العدل، وكيف كانت دُول العادلين من

الحكام وهم غير مسلمين وما تحقق فيها من أمنٍ ورفاهٍ ومجدٍ وعظمة، وذكروا في ذلك الكثير؛ ومنه ما نقلوه عن أفلاطون، إذ يقول: "زمان الجائر من الملوك أقصر من زمان العادل؛ لأن الجائر مفسد، والعادل مصلح، وإفساد الشيء أسرع من إصلاحه".[1]

ونقلوا عن أرسطو قوله: "العدل صورة العقل الذي وضعه الله في أحب خلقه إليه، وبالعدل عمرت الأرض وقامت الممالك وانطاع العباد، وبه أنس المتوحش وقرب المتباعد وسلمت النفوس من كل داء".[2]

ونقلوا كذلك عن أزدشير قوله: "إذا رغب الملك عن العدل، رغبت الرعية عن الطاعة".[3]

ومما تناقله علماء الإسلام عن حكماء اليونان والهند قولهم: "سلطان عادل خير من مطر وابل". وقالوا: "عدل السلطان خير من خصب الزمان".[4]

وقد اتفقت جميع الأمم والشعوب والأديان على أن العدل أساس البناء الاجتماعي القوي الآمن، ومن تتبع تاريخ الحضارات التي عرفتها البشرية وجد أن اختلال العدل بداية الاضطراب الاجتماعي والتحول الفكري والنفسي، وسيبقى هذا الأساس دائماً بدوام المجتمعات البشرية والحضارات الإنسانية لأنه من غرائز النفس الثابتة فيها.

القيادة النبوية

لما هاجر النبي ﷺ، وانتقل إلى المدينة، جمع قبائل العرب تحت قيادته، وكان فيهم صلوات الله وسلامه عليه: النبيَّ المرسلَ، والمسؤولَ الأولَ، ورئيسَ الدولة، وإمامَ الصلاة، والقاضي، وقائدَ الجيش، والساهرَ على أمن المجتمع وسيادته.

لقد نظّم المجتمع تنظيماً محكماً فأقام العدالة وبسط الأمن، ونشر التعليم، ووزع المال بعد جبايته، وبعث السفارات، وأبرم المعاهدات، ونقل الفكر والشعور إلى مرحلة جديدة في تاريخ الإنسان.

وكانت الآيات القرآنية تتنزّل فتهدي خطى النبي ﷺ والمسلمين حتى قام نموذج جديد لم يُعهد من قبل، وبقي المثال الذي يُحتذى به في العدل والتلاحم لمن يأتي من بعد، وكان هذا المجتمع خليطاً من قبائل شتى، وأعراق متعددة وديانات وثقافات مختلفة، وكلها تتعايش في إطار واحد ومجتمع آمن وتحت سقف القرآن والسنة في منظومة من القيم تغذي الفرد والمجتمع لتصنع التعايش والتآلف الإنساني، ومرجعية المجتمع في كل شؤونه هي النبي ﷺ، واستمر الأمر على ذلك طوال حياة النبي ﷺ.

فلما توفي في مطلع السنة الحادية عشرة للهجرة برزت أخطر قضية سياسية واجتماعية عند المسلمين ألا وهي: من يتولى القيادة ويقوم مقام النبي ﷺ؟!

الخلافة النبوية من فروع الشريعة

لقد أجمع الصحابة على وجوب تنصيب شخص يقوم على رأس القيادة يتحمل المسؤولية، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة - قبل أن يدفن النبي ﷺ - وكانت هذه المسألة مما لم يختلفوا فيه، وإلى إجماعهم هذا استند المسلمون - أهل السنة - من بعد في تعيين الخليفة، مشيرين إلى أنه لم يكن في هذا الأمر نص من القرآن الكريم أو من الحديث الشريف على شخص معين، عدا الآيات والأحاديث التي تأمر بالسمع والطاعة ولزوم جماعة المسلمين، واستدل أبو بكر على من حضر من الصحابة، وخاصة سعد بن عبادة الأنصاري، بقوله: ولقد علمتَ يا سعد أن رسول الله ﷺ، قال وأنت قاعد: "قريش ولاة هذا الأمر فبَرُّ الناس تَبَعٌ لبَرِّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم"[5] ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً فنحن الأمراء وأنتم الوزراء،[6] فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء.[7] وجاءت أحاديث أخرى في ذلك، وقد احتجّ أبوبكر بالحديث على قرشية الخليفة وسلّموا له بذلك.

ومن هذا ذهب جمعٌ إلى أن وجوب نصب الخليفة مُدركه العقل "لضرورة الاجتماع البشري وعدم إمكانية عيشهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازعُ بين البشر لازدحام الأغراض، فلو لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤدي إلى هلاك البشر وانقطاعهم، وحفظ النوع البشري من مقاصد الشرع الضرورية".[8]